

ملاحم القوة في الإسراء والمعراج



الأربعاء 3 أبريل 2019 09:07 ص

بقلم: الشيخ أحمد الشرباصي

الحمد لله عز وجل، يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج: من الآية 74) أشهد أن لا إله إلا الله، يوسع فضله للمؤمنين الأتقياء، ويؤيد بعزته المناضلين الأوفياء.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذريات:58). وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، هو بالمؤمنين رءوف رحيم، وللكافرين مقاوم خصيم، فصلوات الله عليه وسلامه، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه: (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الأنفال: من الآية 4).

يا أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم..

نحن نتطلع الآن إلى نفحات ذكرى الإسراء والمعراج، وهي ذكرى تضم الكثير من العبر والعظات، واللآئق بالمعتبرين أن يأخذوا من هذا الكثير الغزير ما يناسب ظروف حاضرهم، وما يحتاجون إليه في إصلاح أمرهم، ونحن الآن في مرحلة من الزمن تتطلب منا أن نكون أقوياء في إيماننا، أقوياء في بياتنا، أقوياء في أوطاننا، أقوياء في عاداتنا وجهادنا، أقوياء في أخلاقنا وأرواحنا، حتى نحقق في أنفسنا قول خالقنا جل جلاله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح: من الآية 29).

وللقول في حادثة الإسراء والمعراج ملاحم ماجدة متعددة، تتوجها قوة الله العلي الكبير، رب العزة والجبروت، وصاحب الملك والملكوت، الذي مجد نفسه، وعظم شأنه، وقدس ذاته، وأظهر قدرته على ما لا يستطيع غيره، فقال مصوراً جلال سلطانه، وعظيم فضله على إمام رسله في معجزة الإسراء: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء:1). ثم عاد فزكى رسوله صاحب المعراج عليه الصلاة والسلام بالقوة الربانية والعصمة الإلهية التي تجعله يعلو إذا هوت النجوم، ويهدي حين تضل العقول والقلوب فقال: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) (النجم: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7).

وهذا صفوة الخلق محمد تحيط به وهو يسري إلى ربه مظاهر القوة المادية والمعنوية، الحسية والنفسية، القلبية والروحية، ليكون المثل الأعلى لأمتة التي يطالبها ربه بأن تتحلى بكل ما يزينها من قوة، وأن تعد كل ما تستطيع من قوة، وأن تأخذ ما أتاها ربه بقوة، وأن تصون عزتها وكرامتها بالقوة: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران:139).

هذا رسول الله في ليلة الإسراء والمعراج يتدرب بقوة القلب ونقاء الصدر، فيأتيه جبريل؛ ليظهر أحناء قلبه بأمر ربه، ويملأه إيماناً وحكمة، ونوراً ورحمة كما حدثنا نبأ الشق للصدر الكريم من النبي العظيم عليه الصلاة والسلام، ثم انتظم موكب الرحلة، في جلاله وجماله، فجبريل يقوم مقام الرفيق، وميكائيل يمسك بالزمام ليقود، وجبريل وميكائيل علمان من أعلام الملائكة، والملائكة فيهم غلاظ شداد، وهم أيضاً عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، ووسيلة الركوب والانتقال هنا ترمز إلى الخفة والسرعة الاقتدار على قطع المسافات في أقل الأوقات، وهذه الوسيلة هي "البراق" والبراق يذكر بالبرق

الخاطف السريع المضيء، ولذلك قالت السيرة: إن البراق لونه أبيض، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، ويخطو الخطوة فإذا حافره فيها يقع عند نهاية بصره، فكان سرعته أكثر من سرعة انتشار الضوء، وما هي إلا لحظات حتى حل سيد الخلق ضيفاً كريماً على بيت المقدس والمسجد الأقصى، ليتسلم موارث النبوة وأولوية الرسالات، بحكم أنه الرسول الخاتم، وأنه لا نبي بعده، وهناك تجلى عليه ربه بغرة القيادة وقوة الزعامة، فجمع له كيفما شاء جموع الأنبياء والمرسلين، ليبايعوه ويقدموه فيكون لهم إماماً في صلاة ردد ذكراها لسان الزمان كأنما ترنيمة الوحدة في هذه الحياة: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) (القصص: من الآية 68). ثم بدأت الرحلة لارتياح الفضاء وزيارة السماء، والصعود إلى أوج العلاء والسنا، بدأت رحلة المعراج فكانت أول إشارة في تاريخ البشرية تعلم أمة نبي العلم والرفعة "محمد" أن تستجيب لهدى ربها حين يحثها ويدفعها إلى دراسة السماء مع الأرض، فيقول: (قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس: من الآية 101).

وتدثرت روح محمد صلى الله عليه وسلم بما تدثرت به من سمو، وتدثرت ذاته بما تدثرت به من حصانة، وركب المعراج بقوة من هيا له ربه الانعتاق من كثافة الحس البشري الأرضي، والانطلاق إلى آفاق الملكوت الأعلى الرباني وأخذ يعلو ويعلو، وظل يسمو ثم يسمو، حتى جاوز مراتب الأنبياء كلهم في السماء، وبلغ ما لم يبلغه سواه، وهو في حال من الثبات العظيم والأدب الكريم، فالعقل مكين مجيد، والحس وقور وطيد، والبصر مستقيم رشيد: (إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (النجم: 16).

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتنقل في رحلة الإسراء والمعراج يرى جموعاً من الملائكة وراء الجموع، وتحدث عن كثرتهم الهائلة، ثم استشهد على ذلك بقول ربه: (وَمَا يَخْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (المدرثر: من الآية 31) وكلمة "الجنود" هنا تذكر بالجيش، والجيش مظهر للقوة، فكان معاني القوة كانت تحيط برسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين وشمال.

وعاد صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة مغموراً بفضل الله مؤزراً بعناية مولاه، محفوقاً بحراسته وقوته وهدهاد عاد إلى مكة، وأصبح كما تروى السيرة وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار، بعد أن شاهد في تلك الليلة من المشاهد والآيات ما لو رآه غيره لطاش منه العقل وتزلزل الفؤاد، ولكنه النبي الفتى القوى العلي الذي كان من أمر ربه على يقين فلا تخيفه معارضة المعارضين ولا يزلزله شك المرتابين ولقد تعلقت بثوبه بنت عمه أم هانئ مشفقة من مواجهته المشركين بحدث الإسراء والمعراج وقالت له راجية: "يا نبي الله، لا تحدث الناس بهذا الحديث لتلا يكذبوك ويؤذوك" فيقسم لها بالله مؤكداً أنه لا بد أن يحدثهم به، لأنه الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال ومضى فأعلن النبأ وقص الخبر، لا يبالي لومة لائم، ولا سخرية كافر وصارت معجزة الإسراء تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي تكريم، وتمحيضاً للمؤمنين أي تمحيص وتمييزاً بين من يصلح للجهاد والهجرة في سبيل الدعوة ومن لا يصلح، وكثر المكذبون وقل الموقنون ولكن القلة المؤمنة تزايدت مع الأيام وتضاءلت الكثرة الكافرة حتى أصبحت كالبهائم وأبى ربك العلي الكبير إلا أن ينصر عبده ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً هكذا كانت ملامح القوة تحيط برحلة الإسراء والمعراج من كل جانب لتكون تصديقاً لقول الحق: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (المنافقون: من الآية 8)، يا أتباع النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لا ينبغي الاقتصار في ذكرى الإسراء والمعراج على الانبهار بجلال المعجزة وروعة الخوارق، بل ينبغي مع ذلك أن نستلهم في هذه الذكرى كل معاني القوة لنحققها في حياتنا فنلقى بها عدونا غداً، فنكون من المفلحين:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لَكُمْ وَأَخْرَبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ لَّا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (الأنفال: 60)

واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.

سبق نشره في (إخوان أون لاين) في 1 أبريل 2003م

